

موضوعات المديح النبوي عند الخليفة محمد أنياس

Themes of Prophetic Praise in the Poetry of Sheikh Muhammad Al-Iyas

إدريس بن خويا

عبد الوهاب مهوي*

جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)

جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)

مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا

مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا

Benkhoaia.idriss@gmail.com

Rikawahab58@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/05/16

تاريخ الاستلام: 2024/04/27

تاريخ النشر: 2024/12/10

ملخص: شكلت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم محورا هاما للشعر العربي قديمه وحديثه، ولقد اتخذ شعراء الإسلام من غرض المديح النبوي موضوعا أساسيا لأحد أهم الأنواع الشعرية العربية التي حظيت باهتمام عدد كبير من المسلمين، ولأن المديح النبوي شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية، تطغى عليه الروحانية الصوفية والتركيز على الحقيقة المحمدية تارة وإظهار حب النبي صلى الله عليه وسلم تارة أخرى فإن شعراء السنغال أكثر من أبدع في نظم المديح النبوي، إذ نافسوا فيه فطاحل شعراء المديح القدامى كالبوصريي . ويعتبر الخليفة الحاج محمد أنياس من أكثر شعراء السنغال في نظم شعر المديح النبوي.

وفي هذه الورقة البحثية نحذف إلى محاولة تسليط الضوء على هذا الغرض الشعري بالسنغال، ومعرفة موضوعاته عند الشاعر الحاج محمد أنياس .

الكلمات المفتاحية: مديح، سنغال، دين، محمد أنياس.

Abstract The figure of the Prophet Muhammad (peace be upon him) has been a central theme in Arabic poetry, both ancient and modern. Islamic poets have made the subject of prophetic praise a fundamental theme in one of the most important genres of Arabic poetry, which has received the attention of a large number of Muslims. Prophetic praise is religious poetry that stems from an Islamic vision. Sufism spirituality and focus on the Muhammadan truth dominate it at times, and showing love for the Prophet (peace be upon him) at other times. Senegalese poets, more than any others, have excelled in composing prophetic praise poetry, competing in it with the great poets of ancient praise poetry such as Al-Busairi. Sheikh Al-Hajj Muhammad Al-Iyas is considered the most prolific Senegalese poet in composing prophetic praise poetry.

In this research paper, we aim to shed light on this poetic genre in Senegal and to identify its themes in the poetry of Sheikh Al-Hajj Muhammad Al-Iyas.

Keywords: Panegyric, Prophet Mouhamed, Senegal, Muslim, Muhammad Anias

*المؤلف المرسل: عبد الوهاب مهوي

المقدمة: احتلت المدائح النبوية في الشعر السنغالي العربي مكانة مرموقة لارتباطها بمختلف المناسبات الدينية، وقد صار هذا الغرض الشعري تقليدا ارتقى به شعراء السنغال وأبدعوا في نظمه بعدما أن اعتبروه شعرا دينيا ينطلق من رؤية إسلامية تطفئ عليها الروحانية الصوفية من خلال إظهار حب النبي صلى الله وسلم، والتركيز على الحقيقة المحمدية ومآصياها من معجزات خص بها الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم. وقد ناس شعراء المديح النبوي بالسنغال كبار شعراء المديح القدامى أمثال البوصيري، وكعب بن زهير، حتى أصبح هذا الغرض عندهم لازمة من لوازم الشعر السنغالي؛ حيث أفردت لقصائدهم مجلدات، ودواوين ضخمة اتسمت بصدق التعبير الفني والإحساس الديني. ولأن كثرة شعراء المديح النبوي بالسنغال راجع إلى تشجيع سكان المنطقة لهم وتحفيزهم؛ فإن هذا الإنتاج الشعري اكتسب رداء الصدق بين أبناء المنطقة منذ ظهوره أول مرة؛ حيث تنوعت موضوعاته وأصبح مرآة صادقة لحياة السنغاليين في شتى المجالات. ويعتبر الخليفة الحاج محمد انياس واحدا من أكثر شعراء السنغال إبداعا في هذا الغرض الشعري؛ على غرار من سبقه من شعراء المنطقة أمثال الشيخ عمر الفوتي، والشيخ الحاج إبراهيم أنياس. وعليه نطرح التساؤلات الآتية :

كيف نشأ شعر المديح النبوي بالسنغال؟ وما العوامل المؤثرة فيه؟ وماهي أبرز سيماته عند الشاعر الخليفة الحاج محمد أنياس؟

1- المديح النبوي في الشعر السنغالي :

تعود أشعار المديح النبوي إلى بداية الدعوة الإسلامية، مع قصائد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم وفي مقدمتهم حسان بن ثابت و، كعب بن مالك، وغيرهم من الشعراء المسلمين الذين قالوا قصائدا في ثناء النبي صلى الله عليه وسلم، والإشادة بمناقبه، وخصاله، وذكر أوصافه، وفضائل أخلاقه، وقد نال شعر المديح النبوي المكانة المرموقة في الأب العربي قديمه وحديثه، إذ أظهر من خلاله الشعراء العرب براعتهم في نظمه حتى أصبح ملحمة أدبية كبرى نالت الصدارة عند الكثير من شعراء الصوفية. ففي الشعر السنغالي ظهر المديح النبوي بفضل ثلة من الشيوخ والشباب من أصحاب الطرق الصوفية الذين أثرت فيهم قصائد البوصيري، وأكسبتهم ناصية القول والشعر، حتى تفجرت منهم مناهل الوجدان للتعبير عن مدى صدق محبتهم لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، وقد انتشر شعر المديح في كل أطراف السنغال، ومما ساعد على ذلك طغيان اللغة الولفية كبرى لغات المنطقة إلى جانب اللغة العربية التي حفزت أبناء المنطقة على اعتناق الإسلام، وعلى قول المديح النبوي عن رغبة وقتناعة؛ فتعلموها وبها إخرجوا ما في قلوبهم من حب زائد للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الشعراء السنغاليين الذين ذاع صيتهم في هذا المديح النبوي الخليفة الحاج محمد انياس الكولوني، و يعتبر من أوائل ناظمي شعر المديح النبوي في عصره، وقد لا يتسنى لباحث أن يعدّ، أو يحصي عدد الكتب التي ألفها.

2- المديح النبوي عند الشاعر الخليفة الحاج محمد أنياس:

يعتبر الخليفة محمد أنياس واحد من أشهر شعراء المدح النبوي بأفريقيا في العصر الحديث ، قال فيه الشاعر شيخ تيجان غاي .. إنّه أشهر السنغاليين على الإطلاق، فأنا أقرر بيقين أنه من أشعر الشعراء بأفريقيا غربا وشرقها وجنوبها (سيلا عبد القادر،، 146هـ) ، وعلى كل حال فإن الخليفة محمد أنياس له من الصنعة والقدرة والمهارة العقلية ما يؤهله لاحتلال الصدارة بين شعراء غرب إفريقيا قاطبة لأنه موسوعة السيرة النبوية ، إذ لم يهمل شاردة ولا واردة في حياة سيد البشر صلى الله عليه وسلم إلا وأتى بها في قصائده ، وبذلك بلغ بالمديح النبوي مراتب رفيعة من الإبداع والتميز ، خاصة وأنه لم يتعد غرض المديح النبوي إلى غيره في كل دوائيه ، والمتأمل لديون خاتمة الدرر على عقود الجوهر الذي جاء في خمسة آلاف ومئتان وخمسة وتسعون بيتا من الشعر سيدرك جيدا أنه الشاعر المجيد والعالم النحرير، وأن منبع منطلقاته في التأليف نزعت الصوفية التي ما فتئ إلا وهو من أربابها ، وقال فيه علماء الصوفية ما يطابق إنتاجه ومنه عاطف جودة حيث جاء في معنى قوله أن الشعر الصوفي في هذه الوجهة شعرا غزليا للتصوف فيه الأليف بين الحب الإلهي والحب الإنساني والتعبير عن العشق في طابعه الروحي من خلال أساليب غزلية موروثة كان قد تم تكوينها ونضجها الفني (جودة نصر،، 1987، ص 163)

إن الخليفة الحاج محمد أنياس ولكونه رائدا في شعر المديح النبوي بالسنغال ، يرى في المديح النبوي وسيلته للتقرب إلى الله عز وجل ، ومصدرا للشفاعة ، خاصة وأنه شغوف كثيرا بحب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، ولذلك استطاع أن يزاوج بين السيرة النبوية والمدح والتوسلي والشعر الملحمي، فأنج شتى أنواع المديح ، والتي منها التعليمي والتوسلي والمولدي ، وكل ذلك في انسجام ، وبراعة أبدى فيهما أوصاف ممدوحه الخلقية والخلقية ، وما يوضح مكانة المدح النبوي عند محمد أنياس وغيره من مسلمي السنغال أنّ رجال المنطقة ونسائهم، وصغيرهم وكبيرهم، ومثقفهم، يحفظون جميع قصائد المديح المختلفة عن ظهر قلب . وقد تميز المديح النبوي عند محمد أنياس بخصائص لم تخرج عن طوع مثلتها عند باقي شعراء المديح العرب ؛ إلا أن الإنتاجات الشعرية الجيدة في هذا الغرض للشاعر المادح لا بد لها أن لا تخرج على سجيتهما، لتكتمل عناصرها الأساسية ، وإذا أمعنا النظر في معظم قصائد الشاعر محمد أنياس نجد أنّها من ناحية المضمون شعرٌ دينيٌ تطبعه النزعة الصوفية ، يهدف إلى تغيير الناس وإصلاحهم من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية، ومن أروع الأمثلة الجديرة الذكر في ذلك ما وصف به الشاعر السنغالي شيخ تيجان غاي مدائح الخليفة محمد أنياس الكولخي في ديوانه خاتمة الدرر في عقود الجوهر إذ قال بأنّه يتفنن في إبراز مدى تعلقه وحبه الفاني في ممدوحه محمد صلى الله عليه وسلم بإدراج إشارات صوفية ذخر بها ديوانه خاتمة الدرر وكذا تعابيره الجميلة عن حب الأماكن المقدسة والأراضي الطاهرة والشوق العارم إلى زيارة روضه صلى الله عليه وسلم وفي هذا الصدد يقول الخليفة الحاج محمد أنياس:

إلى طيبة الغراء فآلقتُ التبي به تذهبُ الأحزان والضّرّ والبلى
محلّ نزول المصطفى ومقامه ومدفنه فيها إلى جنة المأوى
فلا شيء يُلقِي مثلُ تربته التي علّت فوق شَمِّ الراسيات ولا غروا

فَذَاكَ مَحَلٌّ ضَمَّ جِسْمًا مُعْظَمًا حَوَى مِنْ بَدِيعِ الْحُسْنِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْوِي (محمد أنياس، 1996)

فهذه النماذج تتسم بصدق المشاعر، ونبل الأحاسيس والعاطفة الصادقة، وورقة الوجدان في حب النبي محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - طمعاً في شفاعته ووساطته يوم الحساب، ذلك تبعاً لما جاء في فهم معنى قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). (آل عمران) (الآية 37)

هذا فإن نفوس شعراء المديح النبوي وبخاصة الخليفة محمد أنياس اصطبغت ألواناً من العواطف التي لها علاقة تامة بالنزعة الصوفية التي تظهر العاطفة المتوقدة للشاعر، فكل الأفكار والمعاني التي تحتويها مدائحه نجد أنها متأثرة بمدائح سابقيه من الشعراء على غرار البوصيري؛ حيث أنّ معظمها تدور حول مناقب الرسول وبطولاته التاريخية، وصفاته الخلقية، وميزته الخلقية، ولأن حقيقة اختيار الألفاظ للتعبير راجع إلى وصل من الأعمال الشعرية السابقة لقصائد فحول الشعراء في العصور الأولى، والتي تفتحت بها مواهب شعراء المديح، و صقلت تلك المواهب، بسبب النزعة الشديدة التي أبرزت قدرتهم اللغوية بين أقرانهم، فكثرث الألفاظ الغريبة في بعض أعمالهم الشعرية مما أدى ببعضهم إلى التزام ما لا يلزم في عالم الشعر العربي. ومن أهم سمات المدح النبوي عند الخليفة الحاج محمد أنياس من ناحية المضمون أنّ شعره ينطلق من نبل أحاسيسه، ورقة وجدانه، لأن الهدف المتوخى تغيير الناس وإصلاحهم و من الملاحظات الجديرة بالذكر في امداح الخليفة الحاج محمد أنياس ما ورد في موسوعته الموسومة بالمدايح في السيرة النبوية الشاملة ما أشار إليه الشيخ تبحان غاي واصفاً ديوانه خاتمة الدرر على عقود الجواهر الذي اعتبر سجلاً ضاحكاً بظاهرة نبينا الكريم، فكان وافر التفاصيل في باطنيته و دقيق الكوامن؛ مما جعل الشيخ أنياس يمتدح حيناً، وينوه برسالته حيناً آخر، ويتجلى ذلك في حديثه عن صحابته بعمق وعن أسرته في تمكين وعن غزواته في براعة.

(تبحان، 2009، صفحة 9)،

ولأنّ الحاج محمد أنياس معروف بتفننه في إبراز مدى تعلقه بمدوحه صلى الله عليه وسلم، وذلك رجاء الشفاعة والوساطة يوم الحساب، ولأنه يرى أن شوقه لمدوحه فيه تعبيراً عن حب الأماكن المقدسة وعن الأراضي الطاهرة، فيقول في ذلك :

فَذَاكَ مَحَلٌّ ضَمَّ جِسْمًا مُعْظَمًا حَوَى مِنْ بَدِيعِ الْحُسْنِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْوِي (محمد أنياس، 2015، صفحة 32).

وأما من ناحية الشكل فقصاصد الشاعر أنياس تستند في أوزانها، وقوافيها على طرق خاصة بغرض المديح، فبعض الشعراء من أمثاله عرفوا بأنواع أخرى منها التسيب النبوي، الذي من خلاله يتشوق الشاعر إلى المدينة النبوية التي تضم قبر النبي وغيرها من الأماكن المقدسة، ومنها أيضاً عرض القصيدة، وفيه يعرض الشاعر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويذكر شمائله الطاهرة وصفاته الخلقية والخلقية، وقد يركب الشاعر بذلك كلّ صعبٍ وذلولٍ لعرض غير مرمّد لمعجزاته صلى الله عليه وسلم، وإضافة إلى ذلك فتتسم قصائد الشاعر محمد أنياس بالنمط الكلاسيكي الذي يعنى بتعدد الأغراض، فبناء القصيدة عنده غالباً ما يقوم على المقدمة الطللية، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتصلية والدعاء، والاستغفار والتوبة

3-أنواع المديح النبوي عند الخليفة محمد أنياس:

أسرف الحاج محمد أنياس في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من عشرين قصيدة ،وفي قصائد أخرى تضمينية يمتد فيها امتداد من سبقه في قوة وإحساس فني ،حيث انعكس ذلك في نتاجه الشعري الغزير ،ومن أنواع المديح التي زواج فيها بين السيرة و المديح مايلي:

3-1-المديح التعليمي:

هذا النوع من المديح يمكن تسميته بالشعر التعليمي الذي عرف عند العرب في آدابهم منذ مطلع القرن الثاني هجري خلال العصر العباسي ،ومنذ ذلك الوقت أصبح وسيلة بين أيدي النّاطمين من شعراء المدح وغيرهم ،حيث ينشدون في موضوعات العلوم ،وقد قيل أن هذا الغرض عند الشاعر الخليفة محمد أنياس هو نتاج المدح النبوي شعرا تعليميا ،وفيه يقول الدكتور جاه إذا قارنت كتاب الصّفاء في سيرة المصطفى والكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبر للخليفة محمد أنياس أدركت الفرق بين هما ،فالأول تعليمي في السيرة النبوية والثاني شعر تيجاني إبداعي (صمب عامر).وكما لم يترك الشاعر محمد أنياس مجالا تناوله علماء السيرة إلا وتحدث عنه بأسلوب تعليمي يسير ، وهكذا انتهج أدق التفاصيل والحقائق التاريخية الثابتة في قصائده نحو ما قاله في هذه القصيدة:

وَجُدُودُ ذَوَائِبٍ فِي الْبَرَايَا كُلُّ بَدْرٍ بِهِ الْأَنَامُ اسْتِضَاءَ
أَنْتَ طَهَّ الْأَمِينُ أَنْتَ شَفِيعُ الْخَلْقِ لِمَا لَمْ تَشْفَعْ الشَّفْعَاءَ
نَجَّلَ عَبْدُ اللَّهِ بَنَ شَيْبَةَ مِنْهُمْ هَاشِمَ الْجُودِ الصَّبِيبَ الْمَعْطَاءَ
ثُمَّ بَدَأَ الْبَطَاحَ مِنْ مَنَافٍ وَقَصَصِي كِلَابَ التَّجْبَاءِ
مُرَّةَ كَعْبِهِمْ كَذَلِكَ لَوْي غَالِبٌ ثُمَّ فَهْرُ الْكُرْمَاءِ
مَالِكٌ نَضِرُهُمْ كَنَانَةٌ مِنْهُمْ وَخَزِيمٌ وَمُدْرِكُ الشَّرْقَاءِ
ثُمَّ إِيَّاسٍ بَعْدَهُ مَضْرُومٌ نِزَارٌ مُعَدُّ نَعَمَ الْوَلَاءِ
ثُمَّ عَدْنَانٌ بِإِتْفَاقٍ وَلَكِنْ بَعْدَهُ قَدْ تَخَالَفَ الْأَنْبَاءُ (الخليفة محمد أنياس، 2015)

فما ذكره في هذه الأبيات من أسماء أجداد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ماكان إلا للتعريف بهم،ولأنّ الشعر التعليمي في كل أحواله يستند إلى أفكار علمية أسلوها العرض والتقرير ،وهو السائد عند الشاعر أنياس .

3-ب-المدح التوسلي :

كثيرا ما يربط الخليفة محمد أنياس بين مديح الرسول الكريم وبين واقع حياته ،فتمكنه من استلهام حياته الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو ما يبعث في نفس أي شاعر أو أي قارئ القوة والثقة لمجابهة مختلف القضايا ومواجهة الأحداث ، ولعل هذا الأمر ما جعل الخليفة محمد أنياس يلجأ إلى التوسل الذي يعتبر نوعا من أنواع شعر المديح عنده، ففي الكثير من القصائد نجده يتوسل إلى حبيبته صلى الله عليه وسلم مستغيثا إياه راجيا الشفاء لأمراضه الظاهرة والباطنة ، نجده يقول في قصيدة من بحر الطويل لما زار الروضة الشريفة :

إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ أَشْكُو بِطَالِي كَذَلِكَ إِرْتِكَابِي لِلذُّنُوبِ وَغَفْلَتِي

فَأَنْتَ نَجَاحُ السَّالِكِينَ وَبِأَجْمٍ إِلَى اللَّهِ مَوْلَى الْخَلْقِ هَادِي الْبَرِيَّةِ

أَغْنِي أَغْنِي مِنْ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ وَمِنْ كَيْدِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَزَلَّتِي

وَمِنْ كَيْدِ نَفْسِي يَا وَحِيدَ بَجْدَةٍ تَزِيلُ رِعُونََاتِ النَّفُوسِ بِسُرْعَةٍ (أنيس، 2015)

فنجده في هذه القصيدة يتوسل بحبيبه صلى الله عليه وسلم مستخدماً ضمير المخاطبة مشيراً إلى الحالة التي كان يعيشها في هذه الزيارة التي قادته إلى الروضة الشريفة .

3-ج- المدح الملحمي:

عرف الشاعر محمد أنيس بأن له مطولات مدحية تُنشد في الزوايا وفي البيوت ، وفي مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وهي قصائد تتضمن سيرة الرسول الكريم ، وكذا سيرة خلفائه الراشدين وفيها إشارة إلى وقائع حياتهم من أحداث تاريخية في قالب قصصي شيق ، وتسمتها بالملحمة في حد تعريف الأستاذ قبش لها إذ قال عنها قصائد اتسمت بالحديث عن الأبطال ، وعلى الخيال المجنح وتصور بطولة المتحاربين ، وتتميز بالطول وتحكي قصص الأحداث التاريخية (أحمد قبش ص372) . وقد ذكر الشاعر محمد أنيس في أمداحه البطولات النادرة والأخلاق الفاضلة لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة مجملّة تارة ومفصلة أحيانا أخرى ، وكما أكثر من الإشادة بمواقف أبطال الإسلام. ومثل هذه القصائد يمكن اعتبارها من الشعر القصصي الملحمي لأنه يتوافر على بعض الشروط التي يؤسس عليها هذا النوع من المدح، ومن القصائد المدحية التي سارت على هذا الشكل منها قصيدة بلوغ السيول في مدح الرسول التي تحدث فيها الشاعر أنيس عن حياة الرسول الكريم بمكة منذ بداية الدعوة وفيها أيضاً تحدث عن الغزوات والفتوحات الإسلامية وما وقع فيها من أحداث وبطولات صحابته رضوان الله عليهم جميعاً ، وقد قال فيها

صَارُوا جُنُوداً لِهَذَا الدِّينِ وَأَقْتَلُوا مَعَ الْعِدَى فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ فِي دَوْلٍ

وَجَالَدُ الرُّومِ فِي تَبُوكٍ مَجْتَهِداً لَكِنْ أَتَى الْقَدْرُ الْخُتُومَ بِالْأَجَلِ

وَأَرْسَلَ الْمُصْطَفَى زَيْدًا لَغَزْوِهِمْ وَاسْتَشْهَدَتْ أَمْرَاءَ الْجَيْشِ عَنْ عَجَلٍ

وَبَعْدَهُمْ أَخَذَ الرَّاياتِ خَالِدُهُمْ وَجَالَدُ الرُّومِ بِالْأَشْيَافِ فِي الثُّلَلِ

وَلَتْ عَسَاكِرُ جَيْشِ الرُّومِ خَاسِرَةً صَفَاقُهُمْ مَالَهُمْ فِي الرِّيحِ مِنْ أَمَلٍ (أنيس، خاتمة الدرر، 2015، ص214)

3-د- المديح المولدي:

يهتم الشاعر في المديح المولدي بذكر ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر مناقبه وخصاله الحسنة أكثر من اهتمامه بسرد المعلومات التاريخية كما هو الأمر في الشعر التعليمي. فما قاله شعراء صدر الإسلام حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ما هو إلا ضرباً من هذا النوع من المديح ، وذلك مانجده جلياً عند إمام المادحين محمد البوصيري في برده ، وفي همزيته وهما اللتان تعدان أشهر ما قيل في شعر المديح المولدي ، فالشاعر محمد أنيس جد متأثر ببردة البوصيري ، ودليل ذلك قوله ولما ترعرعت أتانى أبي يوماً أول التّهّار وناولني طرساً فيه البردة وأمرني بحفظها ، فأتيت

آخر ذلك اليوم فأمليتها من صدري ولم أزل مستحسنا لها.. وما ذكرت لم أكن متبجحا بل من باب قول الله فأما بنعنة ربك فحدث (محمد انياس، تضمين البردة 2015، ص 79)، ولهذا النوع من المدح حظ الأسد فيما قاله الشاعر الخليفة محمد انياس، نحو قوله محتفياً بشهر ربيع الأول شهر المولد النبوي الشريف ومشيراً إلى بركة الشهر الذي نعتبه أفضل الشهور على الإطلاق :

بُشْرِ هَلَالِ الْمُصْطَفِي ظَهَرَا فَأَوْرَثَ الْقَلْبَ صَفَا بَعْدَمَا كَدَرَا
وَالْجِسْمَ صَارَ نَشِيطًا عِنْدَ رَوْثِيهِ وَأَوْقَدَ الدَّهْنَ لِلْأُمْدَاحِ وَالْفِكْرَا
شَهْرَ الْفَلَاحِ وَشَهْرَ السَّعْدِ أَذْكَرْنَا مِنْ حُبِّهِ لَوْعَةً مِنْ يُعْرِهَا ذَكَرَا

عيد به ولد المختار في الحرم المكي فأهتزت الأرواح إذ ظهر (انياس محمد الخليفة، 2015)

وعليه فالشاعر محمد أنياس كان يحتفل بذكرى المولد النبوي الشريف كبقية مسلموا غرب إفريقيا، وكما أنه كان حريصاً بحث الناس على إحياء هذه الذكرى العظيمة نجده يقول:

عَظَّمَ بِذِي مَوْلَدِ الْمَاحِي تَنَلَّ ظِفْرَا بِكُلِّ مَا تَبْتَغِي يَاصْحَابِ الْهِمَمِ (انياس، خاتمة الدرر 2015، ص 39)

4- موضوعات شعر المديح النبوي عند الخليفة محمد أنياس

إذا كان شعر الزهد الذي عرفه الأدب العربي في العصور الأولى دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، فإن الشاعر المادح يرى في المديح النبوي شظف في العيش، وحرمان، وجوع، وإعراض عن زخرف الحياة وزينتها، لذلك فشعراء التصوف أمثال الخليفة محمد أنياس يرون أن المديح يقي بحثاً عن حقيقة الأشياء والنفوذ إلى صميمها والكشف عن ما وراء الطبيعة، بحيث يكون إلهياً محضاً تستخدم فيه المادة الشعرية رمزاً وإشارة للحقائق التي لا يقصد ظاهرها، وإذا تتبعنا الشعر الصوفي السنغالي وجدنا أن منابعه وموضوعاته تتمثل في فنون الشعر الديني والغزل والخمرات وغيرها، فنادر ما نجد غرضاً مستقلاً لشعر المديح النبوي بالسنغال. ولعل أهم موضوعاته عند في قصائد الشاعر محمد أنياس مايلي:

4-1- التوسل والإستغاثة:

حث القرآن الكريم في عدد من الآيات طلب الدعاء والتوسل بإعتباره مخ العبادة، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث له أن الدعاء مخ العبادة، فالمطلع على دواوين الشاعر محمد انياس يجد أنها لا تخلو قصائده من التوسل والإستغاثة بل إن التوسل تصدر الموضوعات التي اهتم بها، فكثيراً ما يناجي الشاعر أنياس ربه داعياً ومتضرعاً لطلب حاجة دنيوية أو أخروية من فهو الشاعر المتصوف المتأثر بالصوفية سلوكاً وأدباً. نجده يقول متوسلاً في ديوانه خلاص الذهب

أَرْجُوكَ يَا رَبَّنَا فِي كَوْنِ خِدْمَتِنَا بِضَاعَةٍ غَيْرُ مَرْجَاةٍ لَدَى السَّلَمِ

وبعت ياربنا بيع الفصول فكُنْ مُجِيزَهُ رَبَّنَا بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ (مالك سي، خلاص الذهب ص 149)

4-2-المدح :

كان المدح ولا زال نوع من أنواع الفخر عند العرب العصور الأولى ، إذ أنّ أساس الطبيعة البدوية فضيلة الإعتماد على النفس ، ومع مجئ الإسلام ظهر شعراء المدح الديني أمثال عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهم ، فكانوا أول منابع شعر المدح ، وذلك بعد أن تفنن الشاعر كعب بن زهير في قصيدته "بانت سعاد" والتي أضحت فاتحة شعر المديح ، ومنذ ذلك الوقت اعتبر المدح لونا من ألوان التعبير عن العواطف الدينية وبابا من أبواب الأدب الرفيع. وقد إنتشر هذا اللون الجديد من الشعر أقليم السنغال مع الشاعر محمد أنياس حيث وطبيعة أهل السنغال تميل إلى حب الرسول صلى الله عليه وسلم والاهتمام بإحياء ذكرى ميلاده فاهتم محمد أنياس بهذا الموضوع منذ ظهور المديح النبوي ، فمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام نجده يقول في قصيدة له:

أَنْتَ لِلْكَوْنِ إِبْتَدَاءٌ وَإِلَيْكَ الْإِنْتِهَاءُ
وَإِلَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ تَبَّاهِي مَا تَشَاءُ
أَنْتَ لِلنَّاسِ حِجَابٌ عَلَّمْتَهُ الْعُلَمَاءُ (غاي تجان ، المرشد 2001، ص 33).

4-3- الحب الإلهي:

ويقصد به حب العبد لله سبحانه وتعالى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك الحب في قول الحق جل شأنه وعلا ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (31 آل عمران). ويقول الناقد أحمد أمين معبرا عن ذلك .. وللصوفية شعر جميل مملوء بالحب والفناء ووحدة العاطفة وقوة الوجدان .. وقد استعملوا فيه التعبيرات الدنيوية على سبيل الرمزية من خمر ونساء وبكاء اطلال وحب وهيام وقطعية ووصال .. يعنون بذلك أحوالهم مع ربهم (، أحمد أمين..، 1992). واد ذكر الشاعر أنياس فيه هذا النوع من الحب المتعلق بحب الإله وحب رسوله الكريم ومن ذلك قوله:

مَرَامِي وَحَاجَاتِي لِرَبِّي تَوَجَّهْتُ بِحَمْدٍ وَشُكْرٍ وَهُوَ لِي كَانَ بِالشُّكْرِ (أنياس، 1996)

هذا فالحب الإلهي عند محمد أنياس تجلت أشكاله في صور نادرة من الوفاء للمحبيب ولعل ذلك من براعة الشاعر في أنشاده ، على غرار غيره من شعراء التصوف، فقد أكد على وجوب محبة الله ورسوله عملا بما جاء في الآية السابقة، ولذلك قيل في حب الشاعر أنياس وكل السنغاليين للخالق وللرسول ولمشايخهم الذين تأثرو بهم .. فمن ما لا شك فيه أنّ القرآن والسنة قد سبقا الصوفية في استعمال هذا اللفظ ، إلا أنّهم إهتموا به ويرون أنّه فناء في الخالق وتعلق أفئدتهم وانشغالهم الدائم به يحقق لهم القوة في الإيمان.

4-4-الزهد :

تُعد نزعة الزَّهْد لدى الشاعر أنياس قيمة أصيلة من قيم الدين منذ عصر صدر الإسلام فقيمة الزهد عنده تبقى خالصة ، من شأنها الإخلاص لله والإنقياد له والتوجه إليه بالعمل الصالح. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَزَقْنَاكَ مِنْ حَيْثُ وَابَقِي﴾ (سور طه الآية 137) فالشاعر محمد أنياس بين حافظ لكلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم مما جعله لا ييالي بمباهج الدنيا ولا زخارفها ، فهو لا يطمعون إلا في جنَّة الخلد ودار السَّلام والسَّعادة الدَّائمة ، فقد عبر عن تلك المعاني ومنها ما جاء في قوله:

فَقُلْ لِلَّذِي يَشْكُو عَلَى قَلْبِهِ الْغِطَاءَ لِيُثْنِ عَلَى الْمُخْتَارِ ذِي النُّورِ وَالْعَطَاءِ
فَمَنْ عِنْدَهُ تَأْتِي الْفَيَوضَاتُ كُلُّهَا وَأَنْوَارُهُ تَجْلُو الْقُلُوبَ عَنِ الْغِطَاءِ (توري محمد، مصر، 2009)

4-5-الخمریات والسكر :

ليس المراد بالخمر المنهية عنها في الإسلام وخمرة حياة الماجنين في العصر العباسي ، وإنما المراد بها حب الله وهو ما يعبر عنه بالخمر الصوفي أو ما يسمى بالسكر الصوفي يقول فيه سلطان العاشقين المتصوف ابن الفارض: شَرَيْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مَدَامَةً سَكَرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ (ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، 2003) فشعراء السنغال ومنهم محمد أنياس وصلوا إلى درجة عالية من مراحل التصوف التي يكون فيها الشاعر المتصوف منصرف عن الخلق مشغول بالخالق فهم على ذكر دائم للخالق سبحانه وتعالى في جميع الأماكن والمواطن ، حتى صدق فيهم قول الحق جل شأنه وعلا ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران ، الآية 19). فلم تخل قصائد شعر الخليفة محمد أنياس من الإشارة إلى الخمر الصوفي ، حيث اهتم بهذا الجانب الكثير من قصائده قصائده ، فنجدد يهيم بخمرة الله حتى تغيب روحه على الواقع الذي يعيشه ، وكما يهيم أيضا مع ذاته ، ومن ما يوضح ذلك قوله في أبيات قصيدة في ديوان خاتمة الدرر:

سَقَيْتُ كَاسًا رَوِيًّا مِنْ مَحَبَّتِهِ بِهَا سَكِرْتُ وَلَا مِنْ رَاحِ حَمَارِ
كَاسٌ تُدَارِ عَلَى أَهْلِ الْمَعَارِفِ لَا تُبْقِي عَلَى الْقَلْبِ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارِ (محمد أنياس، 1996)

4-6-الوعظ والإرشاد :

من بين الموضوعات التي جاءت في قصائد المديح النبوي للشاعر أنياس الوعظ والإرشاد في مقام النَّصح والتَّوجيه ، فقد تأثر بما جاء به بالقرآن والحديث النبوي ، وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم ، الشيء الذي انعكس على أمداحه ، فكان أبرز الوعظ الذين يعظون الناس ويذكروهم باليوم الآخر ويوم الحساب ويوم الثواب والعقاب والجنة والنار ، ومن الذين يرغبون الناس إلى العمل الصالح والتخلق بالأخلاق الفاضلة الكريمة، يقول في أبيات قصيدة له:

خَيْرُ الْفِعَالِ فَعَالُ الْخَيْرِ جَمْعُهُ تَبْجِيلُ مَوْلَدٍ خَيْرُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
عَظَّمَ بِذِي مَوْلَدِ الْمَاحِي تَنَلَّ ظَفَرًا بِكُلِّ مَا تَبْتَغِي يَا صَاحِبَ الْهِمَمِ (الخليفة، 2015، ص 139).

4-7- المناجاة والتأمل:

يقصد بالمناجات الحديث سرا وتعتبر عند الصوفيين الدعاء وشكر الله على ما أنعم عليهم من النعم ولذلك تكون بالإنفراد للعبادة والذكر ولا يشترطون تخصيص مكان للإعتكاف أما التأمل عندهم هو التثبت والتدقيق في أمور الوجود والمجتمع والحياة وكذلك الطبيعة يقول ابو بكر عتيق في هذا الصدد "والقلب هو أداة الذكر أساس عند الصوفية فهو الذي يستحضر اللفظ أولاً ويتصور معناه ثانياً ويحاول أن يدرك ما صدق عليه اللفظ بما يناسبه من درجات الإدراك وما اللسان إلا مظهر خارجي لذكر القلب (الشيخ ابو بكر عتيق ، هدية والاحباب والخلان ، ص139). وللشاعر محمد انياس قصائد جميلة في التأمل والمناجاة في ديوانه خاتمة الدرر.

ومنها في شعر المديح في المناجاة قوله في أبيات قصيدة له :

أرسل سحائب من عَفْوٍ ومن مننٍ تجلو بها كلَّ ما قد كان من دَرٍ

فالله يعلم من ضُعفي وفقر يدي ما كلَّ عنه لسان الحاذق السن (أنياس، ص 143، 1996)

هذه بعضا من أهم موضوعات شعر المديح النبوي المنتشرة في قصائد محمد أنياس، وهي غيض من فيض هذا الغرض الشعري، والذي لا شك فيه أنَّ الموضوعات السالفة الذكر هي صدى لروح الدين الاسلام المنتشر بالمنطقة، والذي نهل منه المجتمع السنغالي المسلم علوم القرآن، والسنة المطهرة وأيضا أقوال الصحابة والتابعين والصالحين فأخرجوا شعرا دينيا سخر في خدمة العباد والبلاد.

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى أنَّ الشاعر الخليفة الحاج محمد أنياس من أعظم فحول شعراء المديح بالسنغال، فتمكنه من فنون الشعر والعلم العربي أدباً وبلاغاً ونحوا وصرفاً وعروضا وسائر العلوم الإسلامية هو ما يشهد له ذلك، كما أنَّ شاعريته تكمن في قدرته الجادة على تنويع أساليب ومواضيع المديح النبوي. ومن ذلك نستنتج أنَّ:

- شعر المديح النبوي بالسنغال اتسم بالروحانية، فقد نشط في بيئة خصبة لنموه وفي أوساط فقهاء وعلماء ودعاة تطبعت مدائحهم بالكلاسيكية في أشكال مختلفة .

- نلاحظ في قصائده الشاعر أنياس الحركة، والتجديد، والتأكيد، والاستقرار حسب ما تقتضيه المواقف الشعرية المختلفة .

- يعبر الشاعر انياس عن مختلف الأحاسيس في صور خيالية خصبة، وبأسلوب نابع من عقلية صوفية متمكنة باللغة الشعرية التي تستمد موضوعاتها من المدح النبوي ومن الحقل الديني الثري .

- ييقي المديح النبوي عند شعراء السنغال مساحة فنية، يسعى من خلالها شعراء المنطقة إلى رسم أحاسيسهم بالالفاظ الإشارية، وكما يسعون من خلاله إلى التعبير عن مواقفهم، فأغلب قصائدهم تقريرية في أسلوبها.

المراجع:

- توري محمد الهادي ، ت ، ط20، 1. (2009). *حرير الاقوال في تاريخ السنغال*. مصر: مصر، دار المقطم، .
- انياس محمد الخليفة، ، ص 79. (2015). *شرح تضمين البردة الملحق بديوان خاتمة الدرر*. الجزائر.
- غاي شيخ تيجان ، (2001). *المرشد في أمداح الرسول*. السنغال: مؤسسة الفجر. 2- *ابن الفارض، ديوان ابن الفارض*. (2003). لبنان: بنان، دار المعرفة.
- سورة ال عمران الآية 31.
- احمد امين ، (1992). *ظهر الكتاب*. لبنان: دار الكتاب العربي ، .
- أحمد قبش ، *تاريخ الشعر العربي الحديث* ، .
- الخليفة محمد انياس. (2015). *خاتمة الدرر*. الجزائر.
- الخليفة محمد انياس. (2015). *خاتمة الدرر*. الجزائر.
- الشيخ ابو بكر عتيق ، *هدية والاحباب والخلان* ، .
- انياس محمد. (1996). *خاتمة الدرر*. دار الفجر.
- انياس محمد الخليفة. (2015). *خاتمة الدرر في مدح سيد البشر*. الجزائر.
- سورة طه الآية 137.
- سورة آل عمران ، الآية 19.
- سي الحاج مالك، *خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ل، دكار، بد ت* . دكار: مكتبة يوسف هلال.
- سيلا عبد القادر، (146هـ). *لمسلمون في السنغال* ، . قطر: مطبعة الأمة .
- صمب عامر. *الشعر السنغالي العربي* .
- عاطف جودة نصر، (1987). *الرمز الشعري عند الصوفية*. بيروت: دار الأندلس، دار الكندي للطباعة - والنشر.